بين يدي الأهوال

يوم القيامة

لما كانت أحداث القيامة غيب عنا، فإن الله سبحانه وتعالى شاء برحمته أن يعطينا من الأحداث الحسية ما يقرب لنا معاني الغيب، وذلك رحمة بالعقول البشرية من أن تضل أو تفتن، وإذا كان هذا هو أحد المعاني التي نريد أن نبينها عن يوم القيامة، فإن هناك معنى آخر هو أننا جميعاً محتاجون إلى التذكرة بأمور الآخرة، حتى نعرف يقينا أن هذه الحياة التي نحياها لا تحمل مفهوم الحياة التي يريدها الله سبحانه لعباده الطائعين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

حينما نقرأ هذه الآية الكريمة، يجب أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، ويبرز سؤال هنا إلى الذهن، ألسنا أحياء فعلاً؟ أليس القرآن يخاطب الأحياء مصداقاً لقوله تعالى في سورة يس: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس].

كيف يكون القرآن قد نزل للأحياء، بينما هو منهج يدعو إلى حياة أخرى؟ نقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا اختباراً للآخرة؛ لأن الله الذي كرم الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وسخر له ما في الأرض جميعاً.

بل الكون كله بقواه الهائلة التي تفوق قدرة الإنسان ملايين المرات، والتي هي قادرة على أن تهلكه في لحظة واحدة، هذا الكون كله بتلك القوى الهائلة الموجودة فيه مسخر لخدمة الإنسان، الشمس تعطي أشعتها له ولا تستطيع أن تعصي، والهواء يعطيه التنفس ولا يستطيع أن يرفض، والبحار تعطيه المياه ولا تستطيع أن تمتنع، والأرض تعطيه كل خيراتها فلا هي تقدر أن تمنع الزرع، ولا أن تمنع الثمار منه، وهكذا نرى أن كل ما في الكون مسخر لخدمة الإنسان، الإنسان على إطلاقه، المؤمن والكافر.. المطيع والعاصي.

ولكن كل هذا هو في دار اختبار، فالدنيا كلها ليست غاية الإنسان المؤمن

الحقيقية، ولكنها فترة زمنية محدودة، كاختبار أو امتحان للحياة الأخرى الحقيقية التي أعدها الله للإنسان العابد له، الشاكر لأنعمه، المنفذ لمنهجه بحب وطواعية، ولذلك نجد في القرآن الكريم أكثر من آية تلفتنا إلى ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الآخرة خير وأبقى

اللّه سبحانه وتعالى جعل الحياة الحقيقية للإنسان في الآخرة، لأن الحياة الدنيا؛ دار أغيار يعاني فيها الإنسان ويكابد، وليست فيها أحوال ثابتة مستقرة، فأنت اليوم قوي وغداً ضعيف، وأنت اليوم غني وغداً فقير، وأنت اليوم في صحة جيدة وغداً مريض، وأنت اليوم حي وغداً ميت، لا شيء يستقر على حال، فكل شيء في الدنيا يتغير ويتبدل.

ولكن لماذا جعل اللّه سبحانه وتعالى الدنيا عالم أغيار؟ ذلك حتى يلفتنا سبحانه إلى أن كل شيء منه هو سبحانه، فنحن لا نملك شيئاً بذاتنا، ولو كانت الصحة مثلاً من أنفسنا ما مرض منا أحدٌ أبداً، ولو كان الغني من عقولنا ما أصابنا الفقر أبداً، وذلك حتى نتذكر دائماً نعمة اللّه تعالى وقدرته فلا نعصيه، ولكي نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى هو الوهاب وهو الفعال لما يريد، فلا تغرنا قدرتنا ونقول فعلنا، ولا يغرنا ما نحن فيه من النعم، فنقول كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨].

إنما يريد اللّه سبحانه أن يجعلنا متبعين لمنهجه ملتزمين لأمره ونهيه، ولا يحدث هذا إلا إذا عرفنا ضعفنا وقوة اللّه، وعجزنا وقدرة اللّه، وكلما غرتنا مظاهر الدنيا تغير الحال من قوة إلى مرض، ومن قدرة إلى عجز، وفي ذلك عظة، علنا نفيق ونتذكر.

هكذا جعل اللّه سبحانه وتعالى هذا الكون عالم أغيار رحمة بنا، فلو أنه ليس عالم أغيار لبعد الناس عن منهج اللّه، لو رأوا في أنفسهم قوة لا تضعف، وقدرة لا تعجز، ومالاً لا يفنى ولا يذهب لغرتهم قوتهم، فأفسدوا في الأرض، وانطلقوا مع أهوائهم وشهواتهم، وأحس كل واحد منهم أنه بقوته وقدرته قد استغنى عن اللّه سبحانه وتعالى، فمادامت القوة لا تتغير ولا تتبدل، فينسى الإنسان ذكر ربه، ويطغى، ويستغني، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]. ولقد شاءت رحمة الحق سبحانه

وتعالى أن يوجد في الكون ما يذكرنا دائماً بأننا لا نفعل شيئاً إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى، فنحن نرى بأعيننا، ولكن الله شاء أن يخلق من له عينان ولا يبصر، لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها، ولكن الله شاء أن يخلق من له عينان ولا يبصر، لنعلم أن العين لا تبصر بذاتها، ولكنها تبصر بقدرة الله تعالى، كما أننا نمشي بأقدامنا، ولكن الله شاء أن يوجد من له قدمان ولا يستطيع المشي، ونسمع بآذاننا، ولكن شاء الله أن يخلق من له أذنان ولا يسمع.

تلك أمثلة قليلة نذكرها مما وضعه الله تعالى في الكون، وشاء الله سبحانه وتعالى تفضلاً منه ورحمة أن يعوض هؤلاء الناس عما فقدوا من ميزات بميزات أخرى، فوجد من هو أعمى ولكنه من أعلم الناس، ووجد من هو أصم ومن أنبغ الموسيقيين، ووجد من لا تحمله قدماه وحكم أقوى دولة في العالم من فوق كرسي متحرك. إلى آخر هذه الأمثلة.

إذن.. فعالم الأغيار، رحمة بالإنسان، حتى لا يطغى ويبتعد عن منهج الله، كما أن تسخير الله لقوى هائلة في الكون لخدمة الإنسان هو رحمة من الله بنا، حتى نتذكر كل يوم، ونحن نرى الشمس والأرض والبحار، ونتنفس الهواء، إن هذه القوى كلها مسخرة لنا بقدرة الله تعالى.

❁ ❁ ❁

مصير العلماء
غير المؤمنين يوم القيامة

اللّه سبحانه وتعالى في الآخرة يخص بنعمه عباده الطائعين الشاكرين، ولكي يكون ذلك عدلاً، فلا بد أن تكون هناك فترة اختبار يمر بها كل منا، يكون فيها قادراً على المعصية ولكنه يطيع، ويكون قادراً على الكفر - والعياذ باللّه - ولكنه يؤمن، ويكون قادراً على الإفساد في الأرض، ولكنه يُصلح، كل هذا حبًا للّه وليس لأي هدف آخر، فالإنسان يصلي طاعة للّه، ويتصدق لوجه اللّه، ويعمل الصالحات إرضاء للّه، فمن فعل ذلك بإيمان حقيقي مخلصاً للّه تعالى تقبل اللّه منه، ومن فعل كل هذا وليس في قلبه إيمان؛ وليرائي به الناس لم يتقبل اللّه تعالى منه.

وهذه النقطة لا بد أن نلتفت إليها جيداً، لأنها أخذت جدلاً كثيراً بين الناس.

فالناس تتساءل عن أولئك الذين قدموا للبشرية اكتشافات أفادت الدنيا كلها، ذلك الذي اكتشف البنسلين، وذلك الذي كشف اللّه على يديه دواء لداء كان بلا شفاء حتى جاء هو وهداه اللّه لاكتشاف هذا الدواء، هؤلاء الذين قدموا للإنسانية خدمات هائلة انتفع بها البشر جميعاً، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين باللّه تعالى؛ هل يخلدون في النار؟

بعض الناس يزعم أنهم سيدخلون الجنة لما قدموا من خير للبشر!! ولكن الصحيح أنه: مادام لم يكن اللّه تعالى في بالهم فلن يدخلوا الجنة؛ لماذا؟ لأنك إذا عملت عملاً فإنك تأخذ أجره ممن عملت من أجله، ذلك قانون أزلي، فلا يمكن مثلاً أن تبني عمارة لإنسان وتطلب أجرك من إنسان آخر، أو تكون عاملاً في مصنع ثم تطالب صاحب مصنع آخر بأن يدفع لك أجرك[1].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك؛ لماذا؟ لأنه لا يحتاج إلى أحد من مخلوقاته، فالله قد خلق الكون كله بما فيه من نعم وأرزاق ومخلوقات بكمال قدرته سبحانه وتعالى ولم يستعن في ذلك بأحد، ولا احتاج في يوم من الأيام إلى أي مخلوق، أو مجموعة من المخلوقات ليستكمل بها كمال قدرته تبارك وتعالى وتنزه. فهو غني عن خلقه جميعاً، غني عن أي شريك، فإذا قصدت بالعمل وجه الله وحده، تقبله منك وجزاك عليه، وإذا أشركت مع الله أحداً ترك كل ما عملت لمن أشركت به، لأن الحق سبحانه وتعالى غني عن هذا كله[1].

لذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى في آيات كثيرة؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ومعنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن هناك من يعمل عملاً صالحاً وهو غير مؤمن، وإنما يقصد بهذا العمل إرضاء بشر، أو أحب أن يقال: إنه عمل وعمل...

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف].

وحتى تكون الدنيا دار اختبار لعمل الإنسان، فكان لا بد أن يُخلق الإنسان مختاراً؛ مختاراً في ماذا؟ في أن يتبع منهج الله أو يعصيه، وبعض الناس يحسب - وهماً - أن اختيار الإنسان في الحياة اختيار مطلق، وتسمع كثيراً من الناس يقول لك: أنا حر.. هكذا على إطلاقها!!

نقول له: لست حرًّا إلا في ما يؤهلك للحياة الآخرة، أي: يؤهلك للجنة أو النار.

إذن.. فاختيار الإنسان هنا اختيار اختبار، وليس اختياراً على إطلاقه، وإلا لو كان اختيار الإنسان على إطلاقه لاستطاع أن يقي نفسه المرض، فعندما يأتي إليه المرض يختار الصحة، أو عندما تأتي إليه حوادث الدهر يختار ألا تقع عليه،

---

(١) أخرج مسلم [٤٦/٢٩٨٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

بل يكون له اختيار في جسده مثلاً، فيختار متى ينبض قلبه، ومتى يتوقف، ومتى تتنفس رئتاه ومتى لا تتنفس، ومتى تعمل المعدة والأمعاء ومتى لا تعمل، وما هي العضلات التي تتحرك عندما يقف وعندما يمشي وعندما يجري، وألوف من الأشياء الأخرى.

ولكن الإنسان يقوم ويجلس، ويمشي ويقف ويجري ويبطئ الخطى، وهو لا يعرف أي العضلات تتحرك، وأيتها لا تتحرك، كل أحداث الدنيا التي تقع على الإنسان لا اختيار له فيها، فنجد إنساناً حريصاً على أن يركب الطائرة أو القطار، مع أن هذه الطائرة أو القطار يحمل له الموت بعد ساعة في حادث سيقع، ولا أحد يختار الموت، ولكنك تجد أولئك الذين كتب عليهم الموت في حادث طائرة مثلاً هم أحرص الناس على ركوب هذه الطائرة، بل إن بعضهم قد يسعى ويتحدث مع هذا ومع ذاك ليحصل على مقعد في الطائرة التي تحمل له الموت.

إذن.. فاختيار الإنسان في الحياة محدود بالمنهج، وهذه رحمة كبرى من رحمة الله تعالى على خلقه، حتى نتذكر أننا لسنا أحراراً بإرادتنا، ولكننا أحرار بمشيئة الله سبحانه، وفي الشيء الذي أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن يملكنا حق الاختيار فيه، فلا يجعلنا حق الاختيار هذا أن نبتعد عن الله، بل علينا أن نعرف مهمتنا في الحياة، والتي هي في اتباع منهج الله تعالى وعبادته سبحانه وحده لا شريك له، فلا يخدعنا هذا فنظن أننا أخذنا هذا الاختيار بقوتنا نحن، فإذا ما عرفنا ذلك اتجهنا إلى الله سبحانه وتعالى باختيارنا، فإذا قال سبحانه: افعل نفعل، وإذا قال: لا تفعل لا نفعل.

إذن.. فمنهج الحياة الدنيا بما فيه من عالم الأغيار، وبما فيه من حرية الاختيار، يجب أن يذكرنا بالله دائماً لنعرف أن هذا كله هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وليس بقدراتنا، فلا نعصي ولا نتجبر، ولكن نخشع ونخضع، لنفوز بالحياة الحقيقية التي أعدها لنا الله سبحانه، ونفوز برضاه ورحمته، ولنعلم يقيناً أننا مهما علونا في الأرض، ومهما بلغنا من أسباب القوة فنحن في قدرة الله لا نخرج عنها أبداً، ونحن في قبضة الله لا نستطيع أن نفلت منها، وأن وعد الله حق، وأن كل ما في الدنيا يذكرنا بالآخرة من أحوال تتغير، ومن اختيار ممنوح لنا من الله سبحانه، ومن قوى أكبر منا تخدمنا وتعمل من أجلنا... إلخ.

ولكن على الرغم من كل هذا هل اتعظ الإنسان؟ هل أحس يقيناً أنه سيلقى الله في الآخرة؟ وهل عمل من أجل الحصول على النعيم الذي أعده الله له في

الجنة؟ الجواب عن ذلك: لا. إلا من رحم الله، على الرغم أن كل لحظة في حياتنا الدنيا تذكرنا بالآخرة، والذين يوقنون بالآخرة يحسبون لذلك اليوم ألف حساب، ولو أن كل إنسان منا تذكر هذه الحقيقة لصلح أمر الدنيا، ولحاسب كل منا نفسه قبل أن يحاسبه الله سبحانه وتعالى، ولكن الناس نسوا يوم الحساب وانطلقوا مع أهوائهم يفعلون ما تشتهي أنفسهم، يرتكبون المعاصي ويعتدون على الحرمات، ويأخذون المال الحرام، ناسين أو متناسين أن كل هذا محسوب عليهم، ومكتوب عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

❁ ❁ ❁

اليقين بالآخرة ركن الإيمان

الإيمان بيوم القيامة هو الأساس في العمل الصالح، ففي أول سورة البقرة يوضح الله سبحانه وتعالى مطلوبات الإيمان فيقول: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة].

وهكذا نرى أن من مطلوبات الإيمان أن يكون هناك يقين بالآخرة؛ لماذا؟ لأنك إذا لم تؤمن بالآخرة، ومادمت تظن أنك لن تلقى الله سبحانه فماذا تخشى؟ وممن تخاف؟

إن أساس الإيمان في الدنيا هو اليقين بالآخرة، ذلك الذي يحول بينك وبين كل المعاصي، وبينك وبين كل المظالم، فالناس تستهين بالمعاصي لأن الجزاء مستور عنها، لو رأينا العذاب لما اقترب واحد منا من المعاصي، لو رأى السارق ما سيفعل به يوم القيامة لما اقترب من المال الحرام، ولو رأى الزاني جهنم ولو لحظة واحدة لما استطاعت نساء الدنيا كلها أن يغرينه، ولو رأى أي إنسان جزاء ما ينتظره على المعصية لما ارتكبها، ولكن لأن الجزاء مخفي عنا، ولأننا إما أن ننسى ما ذكره الله سبحانه وتعالى لنا عن الآخرة، أو تستهوينا المعصية، أو يستذلنا الشيطان، فنقع في ما حُرم علينا.

وأساس السلوك البشري في الدنيا هو اليقين باليوم الآخر، ذلك اليقين الذي يرفع يد القوي عن أن يغتصب حق ضعيف لأنه يعلم أنه ملاقٍ الله يوم القيامة، ويمنع كل قادر متجبر عن أن يأكل أموال الناس بالباطل، فإذا تذكرت الآخرة وأنت تهم بأي معصية، فإنك ستتجنبها على الفور خوفاً من عقاب الله تعالى.

❁ ❁ ❁

معنى الساعة

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة، فإنه لا بد من حديث عن معنى الساعة، ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة، ومتى تقع؟ إلى آخر ما نسمعه من أسئلة وتنبؤات بين عدد من الناس، فمنهم من يقول: إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيجمد كل شيء.

والبعض الآخر يقول: إن الأرض ستقترب من الشمس، فيحترق فيها كل شيء.

والبعض الثالث يقول: إن الأكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة.

كل هذا وغيره تنبؤات تقوم على الظن، وليس على اليقين فحتى الآن لا أحد يعرف يقيناً ماذا سيحدث، ولا متى سيحدث، نقول لهؤلاء جميعاً: لقد شغلتم أنفسكم بشيء علمه لا ينفع وجهله لا يضر، فلو افترضنا أن عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جداً هي فترة عمري، فقبل أن أولد لا علاقة لي بالحياة على الأرض، وبعد أن أموت لا علاقة لي بالحياة على الأرض.

إذن.. فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض، فمن مات قامت قيامته؛ لماذا؟ لأنه يرى كل شيء، يرى ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ويرى مقعده من الجنة، أو مقعده من النار، وأشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا. كذلك بالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾؟

لأن الذي مات كافراً، علم يقيناً أن لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة، ولأنه رأى وعاين ساعة الموت حقيقة عمله، فهو يعرف أن لا أمل له في دخول

الجنة، وأن لا أمل له في النجاة من النار، وهذا اليأس يصبح يأساً يقينيًا، فالإنسان يعرف مصيره ساعة يحتضر، تلك اللحظات التي هي بين الموت والحياة، يشاهد فيها الإنسان كل ما أخفي عنه، تلك اللحظة التي تغادر فيها الروح الجسد، التي هي عند سكرة الموت، تلك اللحظات التي تخمد فيها بشرية الإنسان، وتنتهي فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها.

وإذا أردت أن تشهد ذلك فانظر إلى إنسان قد أعطاه الله أسباب الملك في الدنيا وتجبر وعلا، تجده ساعة الاحتضار ضعيفاً ذليلاً عاجزاً، كل مظاهر الاستعلاء ذهبت، ينظر إليك في مسكنة غريبة، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله، ولكن الكل عاجزون، في هذه اللحظة يأخذ الإنسان مقدمات الغيب، ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه، ولم يكن يصدق به، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

أي: ما كنت تظن أنه لن يقع، أو تحاول ألا تتذكره، وألا تعترف بما هو واقع فيه. في هذه اللحظات لا تنفع التوبة، ولا يجدي الندم، فعند سكرة الموت ينقطع عمل الإنسان وتتوقف حياته عند هذه المرحلة من الدنيا، وينتقل إلى عالم آخر، في برزخ إلى يوم يبعثه الله تعالى ليوفيه حسابه.

❁ ❁ ❁

متى الساعة؟!

عندما سأل اليهود رسول الله ﷺ عن موعد الساعة، طلب الله من رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

أي أنها غيب وستظل غيباً لا يطلع عليه أحد ولا يعرف وقتها أحد، حتى أنه قيل: إن إسرافيل وهو الملك المكلف بأن ينفخ في الصور لكي تقوم الساعة لا يعرف موعدها، وأنه يقف في حالة استعداد مستمر، حتى إذا أتاه أمر الله قام بالتنفيذ في التو واللحظة، كما أن الملائكة المقربون لا يعرفون موعد الساعة، لأن الله اختص نفسه بها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ومعنى يجليها، أي: يظهرها، وهناك الجلوة والخلوة، الجلوة هي الظهور، والخلوة هي الاختفاء، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِوَقْتِهَا﴾ هذه لام التوقيت، تماماً كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، ومعنى دُلوك الشمس، أي: أنها تتجاوز نصف السماء.

إذن.. قوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾ أي لا تظهر إلا إذا جاء وقتها، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾، أي أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي سيظهرها، ولن يعرف بها حتى أقرب الملائكة المقربين إلى الله إلا ساعة تظهر، ثم يقول الحق: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ما معنى ثقلت؟ معناها: أن الكتلة أكبر من الطاقة التي تحملها، فأنت حين تحمل شيئاً أقل من قوة عضلاتك، يقال: هذا الشيء خفيف، وعندما تحمل شيئاً مساوياً لقوة عضلاتك يكون هذا الشيء عاديًا، فإذا كان أكبر من قوة عضلاتك يكون ثقيلاً، ولكن هل الثقل لا يكون إلا في الأمور المادية؟ أم أنه يكون ثقلاً فكريًا وعقليًا؟ يعني عندما تعطي طالباً في السنة الأولى بكلية الهندسة تمريناً مقرراً على السنة الرابعة، يقال لك: هذا التمرين ثقيل على طاقة عقله لا يستطيع العقل أن يحله، هذا ثقل فكري، وهناك ثقل معنوي مثل الهم، وهذا أقسى أنواع الثقل، لأنك يضيق صدرك عن أن تحمله فهو ثقل نفسي، ولذلك يقال: أنه ليس الثقل ما حمله الظهر، ولكن الثقل ما ضاق به الصدر.

إذن.. فعندنا ثلاثة أنواع من الثقل: ثقل مادي، وثقل فكري، وثقل نفسي. قيام الساعة أي نوع من هذه الأثقال الثلاثة؟ إنها الأنواع الثلاثة كلها، فالساعة ثقيلة ماديًا، وثقيلة معنوياً، وثقيلة نفسياً، الثقل المادي هو على الأشياء المادية في الكون، فالأرض والشجر والجبال وكل مافي هذا الكون مقهور لله سبحانه وتعالى، وهو مقهور على الطاعة، مسبح لله في كل وقت، وعندما ترى هذه الأشياء ذلك الإنسان الذي يأخذ خيرها والتي تخدمه وهو يعصي الله سبحانه وتعالى ويكفر به ويفسد في كونه، تتميز هذه الأشياء من الغيظ، فالأصنام تلعن من يعبدها، وتتمنى لو أن الله أذن لها لتفتك به، والشمس التي تعطي من ضوئها وأشعتها للكافر وتخدمه عملية ثقيلة على نفسها، وهي تتمنى أن يأذن لها الله بأن تحرق هذا الكافر العاصي، والبحار وهي تخدم الإنسان تتمنى من الله أن يأذن لها أن تغرق الكافر وتمحوه من الوجود جزاء على كفره، وكذلك كل شيء في الدنيا من الماديات، هي مسبحة لله، وكلها تتميز غيظاً، وكلها تتمنى أن يأتي يوم القيامة فيحاسب فيه الكافر على كفره، ولا يقول أحد: إن المادة ليست لها عاطفة، بل المادة لها عاطفة، وعاطفة راقية وإن كنا لا نفهمها، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان].

إذن.. السماء تبكي، والأرض تبكي، ومعنى ذلك أن لهما عاطفة؛ عاطفة راقية، ويقال: إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان، موضع سجوده في الأرض، وموضع رفع عمله في السماء، وهكذا نرى أن المادة لها عواطف، وأنها تكره العاصين، وتكره الكافرين، ويثقل عليها أن تكون في خدمتهم، ولذلك فهي تتعجل ساعة الحساب، والوقت يمر ثقيلاً عليها، لأنها تريد أن ترى ابن آدم؛ هذا الذي كفر بالله وبنعمه وهو يجازى على كفره، ولذلك يروى: «ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادي السماء تقول: يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم؛ فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول البحار: يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك.

فيقول الله تعالى: دعوهم، دعوهم، لو خلقتموهم لرحمتموهم، إنهم

عبادي، فإن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1].

أما الثقل المعنوي فهو في السماء، فالملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه وبحياته؛ الذين سخرهم الله لخدمته؛ والذي منهم الحفظة وغيرهم، هؤلاء يثقل في صدورهم ما يفعله الإنسان من معاص وكفر بالله، وهم يرون الكافرين يسخرون من المؤمنين يتمنون لو تأتي الساعة لينال هؤلاء جزاءهم، هذا بالثواب وهذا بالعقاب، ولذلك فإن الملائكة يحملون هذا الثقل المعنوي، وهم يرون الفساد في الأرض، ويتمنون أن تأتي الساعة ليظهر الحق وينال العاصون والكافرون جزاءهم. والساعة ثقيلة على النفس لأن الناس تخشاها، فهي ثقيلة على المؤمن الذي يستبطئها ويريد أن يصل إلى الثواب وإلى الجنة، وهي ثقيلة على نفس الكافر لأنه يخشى ما سيقابله فيها من عذاب؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج].

صورة مخيفة تلقي الرعب والهلع في النفوس وتكون ثقيلة نفسيًا، خاصة وأنها كما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: أنها تحدث فجأة.

ويقول رسول الله ﷺ: «ولتقُومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحته، فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها»[2].

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده [١/ ٤٣] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض، يستأذن الله في أن ينفضخ عليهم، فيكفُّه الله عز وجل». وضعفه الأرناؤوط في المسند، وقال: أورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية [٢/ ١٧٦] في قصة طويلة ونسبه إلى إسحاق بن راهوية في مسنده.
وقوله: «ينفضخ: أي ينفتح ويسيل».

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري [٧١٢١]، وبنحوه مسلم [٢٩٥٤/ ١٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وهكذا نرى أن الساعة من هولها ثقيلة، ثقيلة على الكون، ثقيلة على الناس، ثقيلة على الملائكة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وحفي من الحفاوة، والحفيُّ هو الذي يلح في طلب الأشياء، فالطالب مثلاً حين يقترب موعد الامتحان ويكون عنده سؤال لا يعرف إجابته؛ يسأل كل أساتذته، فهو حفيّ بالسؤال يلح فيه ليحصل على الإجابة، وكلها من مادة الحفاء، والإنسان في شؤونه إما أن يعالجها وهو مستقر في مكان مستريح، وإما أن ينتقل وراءها من مكان إلى آخر فيقضيها، فإذا انتقل وراءها من مكان إلى آخر استهلك النعل الذي يلبسه ويصبح حافياً؛ لذلك يقال: «فلان حفي حتى وصل إلى هذا الأمر»، أي: قام بانتقالات كثيرة حتى أصبح كالحافي لأن نعله داب. ويأمر الله جل جلاله رسوله ﷺ بأن يقول لليهود الذين سألوه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

إذن.. هذا تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى قد اختص بها نفسه. وفي موضع آخر يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه].

ما معنى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾؟ ولماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى أخفيها؟ قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يعني أنه سبحانه لا يخفيها، بل يبديها بالتدريج.

إذن.. حتمية قيام الساعة الله يبديها، ولكن موعد قيام الساعة الله يخفيه.

❁ ❁ ❁